ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف فى كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل فى إبراهيم وفى موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفى شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّي رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذى لا ينقضى ، وهو كِتاب الله ومعجزته التى أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته علَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿ اتْلُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذى يرسل رسولاً من البشر بشىء أو فى أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إلىَّ بأن تستمع إلى كتابى الذى أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

(١٦) ﴾ [محمد] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقـرر القرآن هذه الحـقيـقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقـبل للقرآن مختلف ، فالعبرة فى صفاء الاستقبال لأن الإرسـال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كـذلك مَنْ أراد أن يستـقبل إرسـال السـماء فـعليه أنْ يُعـد الأذن الواعية والقلب الصافى غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرج ما فى نفـسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستـقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مـثَّلنا لاختـلاف المنفعل للفـعل بمَنْ ينفخ فى يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه فى الشاى مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] هذه هى مَـيْزة مـعجـزتك يا مـحمـد أنك تسـتطيع أنْ تكررها فى كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سـمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكـانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحـد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا ، فـالذين عـاصروا مـثـلاً انقلاب عـصـا مـوسى حيـة ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شىء إلا أننا

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتى كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا[1] عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿ وَأَقِمِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأىِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر فى مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدى مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبى ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضى على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام فى أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » . وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر فى إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْر الإسلام فى أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحِسْبة[1] المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة - المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب » وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع ، وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىُّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن ـ دَعْك من العالم المتقدم ـ ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(١) .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شبَع ، ويأكلون بعد الشّبَع .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف] وأُثر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هي عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين »[١] و « بُنى الإسلام على خمس »[٢] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هي أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكى ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض .. إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذي يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكى أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّى ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكّ في إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحى إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً . ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الموظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه شخصياً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل إليه من المرسِل ، فأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يحرم أمة محمد من فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب منى كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] إقامة الشيء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلى ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »(١) .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعى عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادى قبل أن أموت : يا أولادى ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذى يحترم وصيتى منهم يكرم مَنْ يدخل بيتى من بعدى ، والذى لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى فى شأن المسجد الحرام : ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار فى ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك فى هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتى عن عدم فهم لمعنى الأمر الكونى والأمر التشريعى ، فقوله تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] أمر تشريعى قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق - سبحانه وتعالى - قال : أمِّنوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ فى البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

---

(١) عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٤٧) والبزار (١/٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن) قال الهيثمى فى المجمع (٢/٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

في ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر في ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠) ﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة في ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعيٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعني : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح ؛ لأنني حين أدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم عليَّ كل ما كان حلالاً لي قبل الصلاة ، ففي الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر في وقتها ؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعني أن الله أكبر من كل شيء في الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدي ربك ، ثم تخالف منهجه ؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شيء يُنكره الطبع السليم ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبني ضَرْب الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبني ضَرْب زيد من

الأمير ، فحين تقـول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذكْر صادر من الله ، أو ذكْر صادر من العبد لله .

فـإنْ قلتَ : ذكْـر صـادر من الله ، أى للمـصلِّى ، فـحـين يصلى الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء فى قوله الله أكـبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بـالقول وبالفـعل ، والله تعالى يجـازيك بذكركَ له بأن يـذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها فى يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكـر الله لك بالثواب والرحمة أكـبر من ذكْركَ له بالطاعة[1] . هذا على معَنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صـادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكْر الله خارج الصلاة أكـبر من ذكْر الله فى الصلاة ، كـيف ؟ قالوا : لأنك فى الصلاة تُعـد نفسك لها بالوضوء ، وتتـهيأ لها لتكون فـى حضرة ربك بعد تكبـيرة الإحرام ، فإذا مـا انتهتْ الصلاة وخـرجتَ منها إلى حركة الحيـاة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشـغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذكْرك فى الحضرة .

ومثـال ذلك ـ ولله تعـالى المثل الأعلى ـ مَنْ يمـدح الأميـر ويُثنى عليه فى حضرته ، ومَنْ يمدحه فى غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق فى الذكْر ؟

---

(١) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى . قاله القرطبى فى تفسيره (٥٢٣٩/٧) .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الجمعة]

يعنى : ذكْر الله فى الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكْرك له سبحانه فى الصلاة .

ورُوِى عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حَسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس ـ مع أن هذا القول مخالف لقوله فى الآية ـ؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعى أن يذكر الله فى حال الطاعة ، فهو متهيىء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

---

(١) أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ۝ ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظلِّه ، يوم لا ظلَّ إلا ظله ـ ومنهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله »(١) هذا هو ذكر الله الأكبر ؛ لأن الدواعى دواعى معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس فى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربكَ ـ عز وجل ـ لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربَع فى نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالى عليك نعَمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لكَ بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعَمه عليك أكبر من ذكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة فى الدنيا موقوت ، أما ذكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة فى الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهى بشارة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

- فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

- وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى » .

ومن الجدل أُخذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفي معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منهما مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أي : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق في الجدال أو الحجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفي ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مراء أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل في هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥) ﴾ [المؤمنون]

لكن إذا فَتَلْنا الشيء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل في الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّي نفسك في مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوى يقينه في شيء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذي كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفي العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضي) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب في الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعي .

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهي الأرض ، كأن يطرح القوي الضعيف أرضاً في صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذي يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرجه عن رأيه الذي يألف إلى

رأيك الذى لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما ألف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقى رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان ؛ لأنك تُخرج خَصْمك عما ألِف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكره ، بل بما يحب .

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذى رأى فى منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاى أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعنى أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله . فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكى فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أُخِذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغى له أن يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتل له عزيز فجلس يصرخ ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابنى قُتل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذى جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .

إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن

يراعى بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق فى البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبى ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم انصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا - عز وجل - أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرِج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتَّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذى ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذى يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيّاً ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل ملَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها فى أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ [الطور]

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التى لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء فى صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقِرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السموات والأرض والشمس والقمر .. إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون . فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذى خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] ولم يقُلْ أحد أنا الإله ، إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا فى جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالى : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوَحدانية . وقال : أنا واحد لا شريكَ لى ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين تنتفى عنهم صفة الألوهية ، فأىُّ إله هذا الذى لا يدرى بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف يعبدونها ، ثم هى آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فيماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم

مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم يقدر على شيء معين ؟

إنْ كانوا يزاولون الأشياء بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد ردَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء] أي : لذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

وبعد أنْ بينَّا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التي نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ في حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيْزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتي رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه في أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟

فربنا - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ

مؤمنون بإلهكم وبالرسل وبالكتب ، غاية ما هنالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القوامة فى الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حين يتزوج كتابية مؤمن برسولها ، أما الزوج الكتابى فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أن فى الجدال حسناً وأحسن ، وقد سبق الجدال الحسن فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ] ونوح عليه السلام يتلطف فى جدال قومه ، فيقول : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود]

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد ﷺ يقول فى جدال قومه : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيذكر ﷺ الجريمة فى حقه هو ولا يذكرها فى حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأىُّ أدب فى الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلموا أنفسهم فى مسألة القمة الإيمانية ، فادعوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنهم بذلك يدخلون فى صفوف سابقيهم من المشركين ، فإنْ كنا مأمورين بأن نجادلهم بالتى هى أحسن وقالوا بهذا القول ، فعلينا أن نجادلهم بما يقابل الأحسن ، نجادلهم إما بالحسن ، وإما بغير الحسن أى : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالي في سورة الشعراء : ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)** ﴾ [الشعراء] فإنْ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون فى نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذي جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ **الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)** ﴾ [الأعراف]

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. (١٧)** ﴾ [المائدة] وقال أيضاً : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ .. (٧٣)** ﴾ [المائدة]

أى : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئلنا فى الخارج من أبنائنا الذين يرغبون فى الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سَلْها أولاً : ماذا تقول فى عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا فى معنى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] ونحن لا نحمل السيف فى وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمى اختيار المختار ، فلى أنْ أعرض دينى ، وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعونى من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركونى أعلن عن دينى فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به فى بلادنا ، ونظير حمايتنا لهم ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم جزية .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] لأننى لا أكرهك على شىء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشْد بيِّن والغيّ بيِّن ، فلا داعىَ للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صلِّ . يقول لك ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه فى أصل الدين فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت فى هذه حُرٌّ ، أمّا إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه فى الدين » و « لا إكراه فى التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب فى الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿ أَهْلَ الْكِتَابِ.. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أى : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفى موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام[1] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر فى كتبهم باسمه ووصفه : ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين فى

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه ﷺ عبد الله . شهد مع عمر فتح بيت المقدس ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) .

المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يُبعث فى مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[١] ؟ فلما جاءكم النبى الذى تعرفون أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وردت فى القرآن ، لكن فى غير الجدل فى الدين ، وردت فى كل شىء يُوجب جدلاً بين أناس ؛ وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد جاءنى رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولى الحميم ؟ قلت له : كونْك تحمل هذا الأمر فى رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتى هى أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه ولىٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين[٢] :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التى وَمِنَ الذى
ادْفَعْ فديْتُكَ بالتى حتَّى تَرى فإذَا الذى

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

والمعنى : من التى تسىء إليك ، أو الذى يسىء إليك ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] حتى ترى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنه جاءنى شاب يقول : إن عمى مُوسر ، وأنا فقير ، وهو يتركنى ويتمتع بماله غيرى ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تتوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد فى قلبك لعمك ، وثقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل - والله يشهد - دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لى : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءنى عمى قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال علىَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركنى للأجانب يأكلون مالى وأنت موجود ؟ ثم أعطانى المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملى بنفسك . فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما بالتوبة وإما برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلّمنا الحق - تبارك وتعالى - التى هى أحسن فى الردّ على الذين ظلموا منهم : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

يعنى : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذى يأتى بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكى أن زوجها لم يُوفِ بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعنى أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيتِ به ؟ قالت : أعجبنى وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمى حقّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، لماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ تُسلم له الأمر فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] فقال هنا : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] يعني : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أي : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول في (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة في كل الكتب التي أُنزلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذي جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله ﷺ ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف

التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

فى حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم ، حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتى بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتى إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتى المعجزة لتثبت صدْقه فى البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا فى حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعى للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز ﷺ على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته . وسبق أنْ قلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشىء لا علْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدَّانا به ؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتى أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقى منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهى ما يشاء . أما العقائد فهى ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ فى القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا فى التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتى مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، فى زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة فى مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم فى بيئة مجاورة .

أما محمد ﷺ فقد جاء - كما يعلم ربه أزلاً - على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم فى آخر الدنيا ، فنعلم به ، بل ، ونشاهده فى التوِّ واللحظة ، وكأنه فى بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفى لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون فى أوصاف النبى الجديد التى وردتْ فى كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسى[1] أن بمكة نبيا جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ،

(١) سلمان الفارسى ، صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب فارس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، وسمع كلام النبى ﷺ ، أظهر إسلامه ، وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، توفى ٣٦ هـ بالمدائن وكان أميراً عليها . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فِطْنة النبوة التى أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة(١) .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو - ابن سلام - على يهوديته - فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت - يعنى يُكثرون الجدال دون جدوى - وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامى أن يسبونى ، وأن يظلمونى ، ويقولوا فىَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أنْ تسألهم عنى ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنتُ إسلامى ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون فى عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا .. إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت(٢) ؟

وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ هَـٰؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ .. (٤٧)﴾ [العنكبوت] أى : من كفار مكة مَنْ سيأتى بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ

---

(١) ذكر البيهقى قصة إسلام سلمان الفارسى فى كتاب دلائل النبوة فى ١٨ صفحة (١/٨٢-١٠٠) وفيه أنه عندما قابل رسول الله ﷺ ورأى أنه يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة دار خلف رسول الله ، يقول سلمان : « ففطن لى النبى ﷺ فارخى ثوبه ، فإذا الخاتم فى ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٦ - ٥٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧)﴾ [العنكبوت] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتى من أن النِّسب إما نفى ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفى القلب سَلْب أو قال سلب وفى القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ فى النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١)﴾ [المنافقون] أى : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا فى قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل فى شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين فى مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾

قوله : ﴿تَتْلُوا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : تقرأ ، واختار تتلو لأنك